فؤاد دواره

مأساة لبنان : اعلان دموي بافلاس كل مؤسساتنا الثقافية

احيانا يتجمد القلم في اليد حتى لكأنه عود من الحطب الجاف .. تموت الكلمات على سنه قبل ان تولد، لعجزها عن التعبير عما يجيش بصدر كاتبها .. واي كلمات تستطيع ان تصف تلك المأساة الرهيبة التي عاشها الوطن العربي كله على ارض لبنان خلال العامين الماضيين؟.

ومع ذلك فما اكثر ما كتب وما نشر عن المأساة واسبابها .. من تصارع القوى العالمية الكبرى وخلافات الانظمة العربية .. والتواجد الفلسطيني في الأراضي اللبنانية .. الى العصبيات الطائفية والصراعات الحزبية والطبقية والعقائدية .. اما الذي لا شك فيه فهو ان ما حدث يمثل دليلا لا يدحض على فشل السياسات العربية على كل مستوى ، ونجاح مخططات أعداء العرب من الصهاينة والاستعماريين ومن يلوذ بهم من الرجعيين والانتهازيين العرب ..

وهو في الوقت نفسه اعلان دموي صارخ بافلاس كل مؤسساتنا الثقافية على مستوى الوطن العربي كله ..

وحين نقول « مؤسساتنا الثقافية » فاننا نعني كل الهيئات والاجهزة والقيادات التي تشترك في صياغة عقل المواطن العربي ووجدانه .. لان « الثقافة » ليست مرادفة للفنون الجميلة فقط كما يتصور البعض ، ولكنها « ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والاخلاقيات والقانون والعادات والقدرات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع .. » كما يقول عالم الاجتماع الانجليزي أ.ب. تيلور ، بل لعلها تتسع لتشمل ايضا كل ابداعات الانسان المادية ومكتشفاته وصناعاته ، لما بين جانبي القيم والافكار والماديات من تأثيرات وتفاعلات متبادلة لا يمكن تجاهلها ..

وعلى ذلك فمؤسساتنا الثقافية تشمل كل الهيئات الدينية والعلمية والتربوية والفنية والاعلامية والترفيهية التي تشارك جميعا في صياغة عقل المواطن ووجدانه .

وما من كاتب او مفكر عربي جاد الا وارتفعت شكاته من تهاون هذه الهيئات والاجهزة وقصورها عن الوفاء

الدارس يستطيع بلا عناء ان يجد في هذه الاقاصيص الاولى بذورا لجميع النزعات الواقعية والقومية والاجتماعية التي يجدها ناضجة في اقاصيصي التالية .

ولكن هذه الاقاصيص قد صدرت من قبل ، والقيت بين ايدي الناس ، وتناولها النقاد ، فليس لي حق بعد في ان أحجبها بدعوى اني غير راض عنها . انها من تاريخي الادبي الذي لا أملك ان انكر منه مرحلة ، وأقر مرحلة . فهي اذن ملك القراء والنقاد والمؤرخين .

وأتساءل بعد ذلك : أنى لهؤلاء القراء والنقاد والمؤرخين ان يرصدوا التطور الادبي لكاتب ما اذا لم يتح لهم ان يدرسوا مراحل انتاجه ويقارنوا ويقابلوا بين مختلف آثاره ؟

انني اذن ، في هذه المجموعة الجديدة ، ملق بانتاجي القصصي الاول ، دون اي تعديل ، بين ايدي القراء ، هذا الانتاج الذي يمكن ان يوصف بانه « المرحلة الرومانتيكية » التي تنتهي ، في حساب سن الكاتب ، ببدء « المرحلة الباريسية » ، اذا صح التعبير ، تلك المرحلة التي انتجت أثرا هاما في حياة الكاتب الادبية ، هو رواية « الحي اللاتيني » عام ١٩٥٣ ، والتي ظل تأثيرها واضحا في انتاجه التالي المجموع في « الدمع المر » عام ١٩٥٦ .

وقد رأيت ان اضم المجموعات الثلاث الاخرى في كتاب واحد كذلك ، بحيث يجد القاريء مجموع انتاجي القصصي حتى الآن في هذين الجزئين اللذين يضمان زهاء خمسين قصة .

اما الانتاج الروائي ، فقد آثرت ان ابقي كلا من مراحله الثلاث مستقلا، وهو « الحي اللاتيني » و« الخندق الغميق » و « أصابعنا التي تحترق » ، بالرغم من ان بعض الدارسين يعتبرونه ثلاثية متكاملة » .

سهيل ادريس

بحاجات المجتمع العربي الناهض .. ولا يكاد ينقضي عام دون ان تنعقد خلاله عدة مؤتمرات وندوات لبحث وسائل علاج هذه الاجهزة والهيئات .. ثم تأتي الكارثة اللبنانية لتفضح بما لا يدع مجالا للشك مدى فشلها عن القيام بأبسط واجباتها .

اذ كيف نتصور مواطنا عرف الايمان الديني طريقه الى قلبه .. يمكن ان يشهر سلاحه في وجه اخيه في الوطن والدين والعروبة ؟!..

او مواطنا على اقل قدر من الوعي السياسي يمكن ان يقاتل شقيقه اللبناني او الفلسطيني او العربي مهما كانت الاسباب ، والعدو الاسرائيلي يعربد في قرى الجنوب كيفما شاء ؟!

.. او انسانا تلقى اقل قدر من التربية الصحيحة يمكن ان يحتكم الى الصواريخ والقنابل الحارقة في محاولة حسم خلافاته مع مواطنيه والاعداء تحيط بهم من كل جانب ؟!

ـ او آدميا عرفت الثقافة طريقها الى عقله باي صورة من الصور ، ومس وجدانه ذات يوم احساس بجمال الطبيعة وابداعات الفن .. يمكن أن يشارك في تجويع النساء والاطفال والعجائز ، بل ابادتهم بقذائف المدافع الثقيلة والطائرات ؟!

***

على ان هذه التساؤلات لا يمكن ان تساوي بين القاتل والمقتول .. بين المعتدي والمدافع عن حقه في الحياة والنضال .. او توحي بأن الثقافة يمكن ان تدعو الى السلبية والاستسلام للعدوان .. فعكس ذلك هو الصحيح .. فكل قيم الدين والسياسة والتربية والثقافة .. اذا كانت تدعو الى الاحتكام الى العقل والمنطق فيما ينشب بين الاشقاء من خلافات ، فانها تدعو في الوقت نفسه الى الايجابية والدفاع عن الحق والعرض والارض ، بكل الوسائل .. وحتى آخر نفس . .

غير ان قصر هذه التساؤلات على فريق دون اخر لا يغير من واقع المأساة شيئا .. فقد اشتبكت الاسلحة العربية بدلا من ان تتعانق وتتساند في مواجهة عدوها .. وسالت الدماء العربية غزيرة من الجانبين ، والعدو ـ دمأوه عزيزة موفورة ـ يرقب المعركة بسعادة طاغية ، ويشارك في تأجيج نيرانها والقاء الوقود في اتونها ..

فهل بعد هذا فشل للسياسات العربية والساسة العرب ؟! .. وفي اعتقادنا ان هذا الفشل ما كان ليتحقق بهذه الصورة المخيفة لو لم يسبقه ويمهد له ويصاحبه فشل اكبر من جانب مؤسساتنا الثقافية في اداء رسالتها على النحو الذي اشرنا اليه ..

واسباب هذا الفشل واضحة غير خافية .. فمعظم حكوماتنا لم تدرك بعد خطر الدور الذي تقوم به الثقافة الاصيلة الجادة في تكوين المواطن وتوعيته والارتقاء بمستواه الفكري والوجداني وتفجير طاقاته الايجابية الخلاقة .

ومن ثم اهملت هذه الحكومات امور الثقافة وبخلت في الانفاق على مؤسساتها في الوقت الذي سخت فيه على اجهزة الدعاية والاعلام معتقدة انها القادرة على حمايتها وتثبيتها في مقاعد الحكم ..

وما اكثر ما اختلطت وظائف الثقافة والاعلام وتولاها اناس لا صلة لهم بالثقافة ، بل لعلهم يعادونها بحكم تكوينهم الانتهازي البيروقراطي .. في حين توارى المثقفون الحقيقيون عاجزين عن اهدار قيم الثقافة الاصيلة في الدعاية والنفاق والتأليه بدلا من وضعها في خدمة جموع الشعب الظمئة الى الزاد الثقافي ..

ان الوطن العربي كله ـ وليس لبنان وحده كما يظن قصيرو النظر ـ يمر بفترة بالغة الخطر والحرج تحيط به الاطماع والمؤامرات من كل جانب وتتمزقه الخلافات والصراعات المعلنة والخفية ، وتثقله مشكلات معقدة متفاقمة ..

ورغم ذلك فمن يتتبع برامج التعليم في مدارسنا والتثقيف في مختلف مؤسساتنا .. ويقرأ ويتأمل فيما تنشره معظم صحفنا ومجلاتنا .. وما تقدمه مسارحنا وشاشات تليفزيوناتنا ومحطات اذاعاتنا .. على مستوى الوطن العربي كله .. يخيل اليه اننا شعب سعيد قد حقق كل آماله ، وحل كل مشكلاته ولم يعد في الامكان ابدع مما كان .. ولذلك فلم يبق امامنا ان نبحث عن وسائل المتعة والتسلية وتمضية انفراغ الطويل فيما لا يفيد .. بل يضر ويقتل في الانسان كل احساس شريف نبيل ..

ونافورة الدم العربي التي تفجرت بغزارة في لبنان اذا كانت قد اكدت فشل السياسة العربية فقد اعلنت في الوقت نفسه عن مدى تخلفنا الثقافي .. وما لم نستيقظ من سباتنا ونعمل بهمة على علاج هذا التخلف فلسوف نتعرض لما هو اشد هولا وبشاعة .. فالمؤامرة الاستعمارية الاخطبوطية لا تستهدف لبنان والمقاومة الفلسطينية وحدهما ، وانما تستهدف نهضتنا البادئة ووحدتنا وتقدمنا .. بل وجودنا نفسه ..

وقد تنجح السياسة في « وقف نزيف الدم » وفي ترميم الصدع .. ولكنها لن تنجح في مواجهة المؤامرة الاستعمارية طويلة الامد ما لم تصحبها ثورة تصحح الاوضاع في كل اجهزتنا الثقافية الدينية والتربوية والفنية ، وتوقف سيل التفاهة والركاكة والخرافة المنهمر على المواطن العربي .. وتقدم له بدلا منه ثقافة انسانية جادة واعية تقضي على سلبيته وخنوعه وتزيد من ايجابيته واحساسه بكرامته وقدرته على الخلق والابداع .. والمشاركة البناءة في صنع التقدم وحمايته من كل عدوان .. مهما كان مصدره ..

القاهرة